

مدينة القاهرة في عصر المماليك

أيمن فؤاد سيد *

بلغت القاهرة المملوكة أكبر نمو ملحوظ لها أثناء السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون 709-741هـ-1309-1341م، التي تعد نقطة تحول هامة في تاريخ المدينة. وتركز هذا النمو في الأساس خارج باب زويلة، وفي المنطقة الواقعة أسفل قلعة الجبل، حيث عمر الأمراء المماليك العديد من المنشآت الجديدة في هذه المنطقة بناء على طلب السلطان. وتضمن ذلك- إضافة إلى الدور والقصور- بناء عدد من المساجد الجامعة الضخمة. فحتى نحو سنة 718هـ/1318م كان الرأي الذي يرى إلقاء خطبة الجمعة في جامع واحد في المدينة "وهو ما يراه المذهب الشافعي الذي أخذ به الأيوبيون" مأخوذاً به بطريقة أو بأخرى. فكان بالقاهرة: الجامع الأزهر في قسمها الجنوبي، وجامع الحاكم في قسمها الشمالي، وكان بالفسطاط جامع عمرو، وجدد السلطان المنصور لاجين جامع ابن طولون سنة 696هـ/1296م لخدمة المنطقة الواقعة جنوب باب زويلة، وكان لقلعة الجبل جامعها الخاص بها الذي بناه الناصر محمد بن قلاوون سنة 718هـ/1318م، كما كان بالحسينية خارج باب الفتوح الجامع الذي بناه الظاهر بيبرس سنة 667هـ/1268م. ولكن بين سنتي 730هـ/1329م و 740هـ/1340م تم تشييد أربعة مساجد جامعة جديدة بين باب زويلة وقلعة الجبل: جامع ألماس الحاجب بشارع الحلمية 730هـ/1329م، وجامع قوصون بشارع القلعة محمد علي سابقاً 730هـ/1330م، وجامع بشتاك بشارع درب الجماميز 736هـ/1336م، وجامع أطنبغا المارديني بشارع التبانة 739هـ/1340م، أضخم هذه الجوامع وأفخمها، وذلك إضافة إلى العديد من الجوامع والمدارس التي شيدت في مواضع أخرى من المدينة مثل: مدرسة مغلطاي الجمالي 730هـ/1329م، وجامع الخطيري 737هـ/1337م، وجامع الست حدق "مسكة" 740هـ/1339م(1).

وبعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون سنة 741هـ/1341م استمر أمرؤه في التشييد في هذه المنطقة التي أضحت منطقة الأرسنقراطية المملوكية. فبنيت ثلاثة جوامع جديدة: جامع أصلم السلحدار البهائي بدرب شعلان 746هـ/1345م. وجامع آق سنقر الناصري بشارع باب الوزير 747هـ/1346م الذي رمّمه إبراهيم أغا مستحفظان سنة 1061هـ/1951م وأصبح يعرف بالجامع الأزرق، وجامع شيخو العمري بشارع شيخون بالصليبية 750هـ/1349م.

وأثر ازدهار المنطقة الجنوبية للقاهرة خارج باب زويلة تأثيراً سلبياً على نمو المنطقة الشمالية خارج باب الفتوح حيث "الحارة الحسينية"، وعلى الأخص في أعقاب "الوباء الأسود" أو "الفناء الكبير"، حيث هجرت هذه المنطقة ثم خربت نهائياً، ونقضت مبانيها في أعقاب محنة سنة 806هـ/1403م(2). ومع ذلك فلم يوقف "الوباء الأسود" حركة التشييد والإعمار خارج باب زويلة. فتم بناء جامع شيخو في هذه الفترة، ودار صرغتمش

بمنطقة بئر الوطاويط 753هـ/1353م، وقصر الأمير طاز بشارع السيوفية 755هـ/1354م، وقبة وخانقاه شيخو 757هـ/1356م في مواجهة جامع شيخو 757هـ/1356م، غير أن أهم هذه المنشآت ومدرسة صرغتمش بجوار جامع ابن طولون 757هـ/1356م، أحد أعظم الجوامع على الإطلاق هي جامع ومدرسة السلطان حسن 757هـ/1363م، أحد أعظم الجوامع والمدارس الإسلامية، والذي تكلف بناؤه أكثر من عشرين مليون درهما، الأثر الذي يجعل منه أكثر منشآت القاهرة تكلفة على الإطلاق، والذي هدم من أجل بنائه اثنان من أفخم قصور القاهرة "قصر يلغا البحاوي" و"قصر الطنبغا المارديني" (3).

ولا يدل تشييد هذه الجوامع والمدارس على أنها - كما قد يتبادر إلى الذهن - قد بنيت تلبية لزيادة سكانية، فعلى العكس من ذلك تماما فإن عدد سكان مصر قد انخفض في هذه الفترة نتيجة للفناء الكبير، ولكن كثرة عدد الوفيات أدت إلى زيادة حصيلة ضرائب الموارد والموارث الحشرية، مما سمح للحكام وكبار الأمراء بتنفيذ سياسة إنشائية طموحة.

وأدى حفر "الخليج الناصري" سنة 725هـ/1324م في غرب القاهرة، حيث كان يستمد ماءه من النيل في مواجهة الحد الشمالي لجزيرة الروضة ويسير موازيا للخليج المصري إلى أن يلتقي به شمال جامع الظاهر بيبرس عند بركة الرطلي (4)، أدى إلى حكر العديد من الأراضي الواقعة بين الخليجين. وبين الخليج الناصري والنيل، ومنحها للأمراء الذين أقاموا عليها العديد من المباني التي صارت نواة لعمران هذه المنطقة الذي تم بصورة واضحة في العصر العثماني، يقول المقرئزي: "فأنافت الأحكار التي استجدت في أيامه - أي الناصر محمد بن قلاوون - على سنين حكرا، حتى لم يوجد موضع يحكر" (5).

ونمى الناصر محمد كذلك ضفة النيل الواقعة بين فسطاط مصر جنوبا وبولاق شمالا، فأنشأ الجامع الجديد شمال الفسطاط، وأنشأ دار وكالة وربعين كبيرين في المنطقة التي عرفت بزربية السلطان، وأضاف إليها الأمير بكتمر الشافي حمامين، وبنى الأمير علاء الدين طيبرس الحازندار جامعا وخانقاه؛ ونشأ كذلك حي آخر مماثل على يسار الميدان الظاهري "ميدان الفلكي الآن" وهو المنطقة التي عرفت بزربية قوصون اشتمل على جوامع ومدارس، ومناظر مطلة على النيل، وأسواق على طول شاطئ النيل بالقرب من بولاق، هجر أغلبها أو تهدم في أعقاب محنة سنة 806هـ/1403م.

وكان إعمار منطقة بولاق قد بدأ منذ عام 713هـ/1313م، فعمر الناس بها دورا على النيل، كما امتدت المناظر على النيل من هنالك وحتى جزيرة الفيل "شبرا الحالية"، وانتظمت العمارة على شاطئ النيل من منية السيرج شمالا إلى موردة الحلفاء جنوبا بجوار الجامع الحديد خارج فسطاط مصر، ومن حافة الخليج المصري الغربية تجاه الخندق بحري القاهرة "منطقة الدمرداس الآن" إلى منشأة المهراي جنوبا "جنوب شارع القصر العيني الآن"، وظلت هذه المسافة العظيمة كلها بساتين وأحكارا عامرة بالدور والأسواق والحمامات والمساجد والجوامع.. وبلغت بساتين بجزيرة الفيل خاصة ما ينيف على مائة وخمسين بستانا، بعدما كانت سنة إحدى عشرة وسبع مائة نحو العشرين بستانا، كما عمر بها الأمير أيدمر الخطيري في سنة 737هـ/1336م جامعا ومدرسة شافعية لخدمة السكان المحيطين بها.

ولكن علينا أن نلاحظ أن تعمير الأحياء الواقعة البئر الغربي للخليج لم يكن قد اكتمل حتى في عصر الناصر محمد بن قلاوون، كما أنه تأثر تأثراً سلبياً بالأزمات الاقتصادية التي مرت بها مصر والقاهرة بين منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ومطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. ولم يعد إليه النشاط إلا في نهاية هذا القرن بعد إنشاء الأمير أزبك بن ططخ لحي الأزبكية، ثم نمت هذه الأحياء في العصر العثماني وفي زمن الحملة الفرنسية، حتى استقرت على وضعها الحالي مع المشروع الحضاري الذي تبناه في النصف الثاني للقرن التاسع عشر الخديو إسماعيل باشا(6).

ولم تكن مدينة القاهرة زمن المماليك مدينة محصنة، فقد اختفى السور الفاطمي وسط أحياء المدينة المملوكية، كما أن القصبية أو الشارع الأعظم لم تكن الشريان التجاري للمدينة فحسب، وإنما المكان الذي كانت تتم فيه كذلك الاحتفالات الموكبية، والتي كان يظهر فيها السلاطين للشعب، وهي تعيد إلى الأذهان الميراث الفاطمي الذي كان يمكن إدراكه حتى هذا الوقت. وكما كان الشارع الأعظم هو المركز السياسي والروحي للقاهرة الفاطمية، فقد أصبح في العصر المملوكي أشبه بمدينة جامعية، معنى صول القصبية – وعلى الأخص في منطقة بين القصرين- كانت توجد سلسلة من المدارس: دار الحديث الكاملية 622هـ/1225م. والمدارس الصالحية 641هـ/1243م، والمدرسة الظاهرية بيبرس 660-662هـ/1262م-1263م، وقبة ومدرسة المنصور قلاوون 683-684هـ/1284-1285م، والمدرسة الناصرية محمد قلاوون 695-703هـ/1295-1304م، والمدرسة الظاهرية برقوق 786-788هـ/1384-1386م، والمدرسة الأشرفية برسباي 829هـ/1425م، وإلى الجنوب قليلاً كان يؤخذ أجر بجوامع دولة المماليك الشراكسة: جامع الأشرف قانضوه الغوري وتجاهه مدرسة وقبة وسبيل وكتاب 909-910هـ/1504-1505م، ثم جامع ومدرسة المؤيد شيخ المحمودي 818-823هـ/1415-1420م بجوار باب زويلة جنوب الفاطمية.

وعلى جانبي القصبية في شوارع موازية لها كان يوجد أيضاً عدد كبير من المنشآت الدينية: خانقاه بيبرس الجاشنكير 706-709هـ/1306-1310م، والمدينة القراسنقرية 700هـ/1300م ملاصقة له إلى الجنوب منه بشارع الجمالية، وجامع سابق الدين مثقال 763هـ/1361م بدرب قرمز، ومدرسة جمال الدين الأشتادار 811هـ/1408م بشارع التشكشبية، وجامع أبي بكر بن مزهر 884هـ/1479م بحارة برجوان. وكان مجلس القاضي يعقد في بين القصرين في المدارس الصالحية النجمية، كما كان يوجد المارستان المنصوري، مركز مصر الطبي في العصر الإسلامي، والذي ظل يؤدي دوره حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

ويمكن أن نضيف إليها كذلك: مدرسة أم السلطان شعبان 770هـ/1369م بشارع باب الوزير. ومدرسة الأشرف شعبان 777هـ/1376م على الصوة مقابل باب القلعة، وجامع أيتمش البجاسي 785هـ/1383م بشارع باب الوزير، بحيث أصبح القسم الأكبر من الآثار التاريخية لمصر الإسلامية مركزاً داخل حدود القاهرة المملوكية التي يدُل عليها الآن مناطق الجمالية والدرب الأحمر والخليفة حتى صليبية ابن طولون جنوباً. وكم التراث

المملوكي بينها هائل وعظيم.

أما دور وقصور القاهرة التي شيدت في العصر المملوكي والتي ذكر منها المقريري في خطته واحدا وستين دارا، شيد القسم الأكبر منها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. فلم يصل إلينا منها إلا أربعة قصور فقط، أي بنسبة 6.56%، منها ثلاثة خارج باب زويلة جنوب القاهرة هي: قصر ألين أق بشارع باب الوزير، وقصر قوصون- يشتبك خلف جامع ومدرسة السلطان حسن، وقصر طاز بشارع السيوفية، والقصر الرابع داخل حدود القاهرة الفاطمية هو قصر بشتاك في منطقة بين القصرين.

وبفضل الشواهد القليلة التي بقيت من عمائر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، نستطيع أن نتخيل شكل القاهرة في هذا العصر، وهي تذخر بهذا الكم من الجوامع والمدارس والخوانق والدور والقصور والقياسير والوكالات التي زال القسم الأكبر منها الآن.

ويجمع بين هذه القصور أسلوب معماري موحد يسمح بتمييزها عن الدور الغيبة للفترة نفسها، وكذلك عن القصور الشركسية في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. وقد استمدت قاعات استقبال هذه القصور تخطيطها من تخطيط قاعة قصر الروضة الأيوبي، ولكن أكثر ما يميزها هو حجمها الضخم سواء في المساحة أو الارتفاع، والمداخل التذكارية لأغلبها، والتي تذكرنا بمدخل الجوامع والمدارس المملوكية. وكان أصحابها يغرمون على تشييد هذه المداخل وتزيينها أموالا ضخمة، مثل ما غرمه الأمير سيف الدين ألباي اليوسفي على بوابة داره، خارج باب زويلة، حيث تكلفت مائة ألف درهم.

وعادة ما كان يشيد الأمير المملوكي بالقرب من داره رباعا ومدرسة، مثل: دار ومدرسة آق سنقر الفارقاني داخل بابا سعادة، ودار ومدرسة بكتمر الحسامي خارج باب النصر، ودار ومدرسة علاء الدين مغلطاي بالقرب من درب ملوخيا، ودار ومدرسة علاء الدين آقبا عبد الواحد بالقرب من الجامع الأزهر، ودار ومدرسة الأمير آل ملك الجوكندار بالقرب من باب المشهد الحسيني.

ومع مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بدأ انهيار الازدهار العمراني الذي شهدته القاهرة في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، فقد وصل الغزو المغولي بقيادة تيمور لنك من جديد إلى مشارف مصر، وأخذت المجاعات والأوبئة تتوالى على البلاد. وحدث التغيير الحاسم لملاح القاهرة في أعقاب أزمة سنة 806هـ/1403م(7)، ففي هذه الفترة كانت القاهرة الناصر محمد بن قلاوون قد زالت، وتقلصت الأراضي التي عمرت في القرن الماضي وهجرت المناطق السكنية الواقعة في شمال باب النصر وفي غرب الخليج تجاه باب اللوق. ولكن هذا التراجع كان دون شك بشكل مؤقت(8). فقد امتد العمران مرة ثانية إلى هذه المناطق عندما أصبحت الظروف مواتية. ويقدر أبو المحاسن بن تغري بردي أن أكثر من نصف القاهرة وظواهرها قد تخرّب في أثناء الغلاء والوباء الذي صاحب أزمة 806هـ، كما فقدت فيه القاهرة نحو ثلثي أهلها(9).

ولا شك أن المقريري، الذي دون كتابه "الخطط" في أعقاب هذه الأزمة، لم يعرف

ازدهار القاهرة ومجدها القديم، وإنّما عاصر فترة التدهور والانهايار، خاصة في أعقاب الانتهاكات وعمليات اغتصاب الأملاك، وعدم احترام الوقفيات التي قام بها بشكل سافر نحو سنة 811هـ/1408م الأمير جمال الدين يوسف الأستادار الذي اغتصب أغلب الأملاك والأوقاف الواقعة في منطقة رحبة باب العيد وما حولها وبنى في موضعها مدرسته وقصره، ليبدأ منذ هذا التاريخ "حي الجمالية" في الظهور ليلعب دوراً هاماً في تاريخ القاهرة (10).

ورغم أن الأضرار التي لحقت بالفسطاط لم تكن أشد من تلك التي أصابت المناطق الأخرى، فإنه لم تجر أية محاولة للنهوض بالمدينة وإحياء دورها، وذلك بسبب تحول طرق التجارة المصرية ابتداء من عصر برسباي 825-842هـ/1421-1438م، واعتمادها على تجارة البحر المتوسط بعد أن كانت حتى هذا الوقت تعتمد على تجارة البحر الأحمر المتوسط بعد أن كانت حتى هذا الوقت تعتمد على تجارة البحر الأحمر عبر الطريق التقليدي (عيذاب قوص - الفسطاط)، وعلى الأخص بعد تخرب ميناء عيذاب نهائياً في أواسط القرن التاسع الهجري (11).

وقد أدى ذلك بالضرورة إلى فقدان الفسطاط لأهميتها الاقتصادية، وهجر الناس لها، وتخرّبها نهائياً في نهاية القرن التاسع. وبالطبع فلم يكن هذا ممكناً إلا بعد إنشاء ميناء آخر للعاصمة في طرفها الشمالي الغربي، هو ميناء "بولاق" الذي بدأ في الظهور اعتباراً من سنة 713هـ/1313م، ولكنه لم يلعب دوراً في الحياة الاقتصادية للمدينة إلا ابتداء من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي (12).

ورغم محاولات التوسع والعمران التي شهدتها القاهرة فيما بعد، وخاصة في زمن سلطنة الأشرف قايتباي 873-901هـ/1467-1496م، الذي يمكن مقارنة عصره بعصر الناصر محمد بن قلاوون فيما يخص التشييد والعمران. فإنّها لم تفلح في الرجوع بعدد سكانها إلى الرقم الذي كان موجوداً في القرن الثامن، وإن كان مارسيل كليرجيه يفترض أن القاهرة كانت تضم في أواسط القرن العاشر، أي في بداية الحكم العثماني، نحو 385 ألف نسمة.

وفي هذه الفترة تم تنفيذ مشروع عمراني كبير على بعد نحو 500 متر غرب الخليج، حيث قام المقر الأتابكي أزبك بن ططخ الظاهري بتعمير منطقة الأزبكية التي نسبت إليه. وقد بدأت هذه الأعمال عام 880هـ/1476م، واستمرت حتى عام 888هـ/1484م. وقد بدأ أزبك بإقامة مناخاً لجماله لتكون قريبة من مقر إقامته، ثم بنى عدداً من القاعات والدور ومقعد، وقام بتمهيد المنطقة وحفر بها البركة المعروفة بالأزبكية، وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري، ثم شرع الناس في بناء القصور والدور حول البركة، وأخذت العمارة تتزايد في المنطقة حتى عام 901هـ/1496م "تاريخ وفاة قايتباي"، حتى صارت كما يقول ابن إياس: "مدينة على انفرادها"، وأنشأ أزبك على الضفة اليمنى للمنطقة جامعاً الكبير المنسوب إليه "جامع أزبك" وأقام حوله الرباع والحمامات والقياسر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع. وللأسف الشديد فلم يبق أي أثر من هذه المجموعة الرائعة من العماير فيما عدا اسم الأزبكية الذي ظل يطلق على البركة وعلى الحي، وقد أزيل جامع أزبك عام 1869م في المشروع الحضاري الكبير الذي تبناه الخديوي إسماعيل لتجديد

ميدان الأزبكية وإنشاء دار الأوبرا المصرية. ويقول ابن إياس: إنَّ الأمير أربك استثمر في هذا المشروع مائتي ألف دينار، وهو مبلغ هائل يتناسب مع قوة نفوذ الأمير ووفرة إمكاناته المالية(13).

وطوال العصر المملوكي كانت الأنشطة التجارية للمدينة متمركزة داخل حدود القاهرة الفاطمية، وعلى التدقيق على طول القسم الأوسط للقبة في المنطقة الممتدة بين الصاغة والكحكيين، والتي تشغل مساحة تبلغ نحو 400متراً طولاً و200متراً عرضاً، وتحصى ثلاثة وعشرين سوقاً أي بنسبة 26.4% من المجموع الكلي لأسواق المدينة، وثلاثة وعشرين وكالة بنسبة 38.6%. كذلك فإن الأحياء الجنوبية للقاهرة خارج باب زويلة، كانت تحوى مراكز تجارية عديدة خاصة على طول الشارع الأعظم الممتد من باب زويلة وحتى المشهد النفسي. أما الأسواق الواقعة فيما وراء الخليج فكانت سويقات غير متخصصة بتجارة أو حرفة معينة وكانت تقع على طول الشوارع التي تربط باب القنطرة بباب البحر شمالاً، وباب الخرق بباب اللوق جنوباً(14).

وتؤكد المقارنة مع معطيات العصر العثماني هذه النتائج. فقد ظلت القاهرة الفاطمية والقبة حتى سنة 1798م هي مركز الحياة الاقتصادية والتجارة الدولية، رغم أن أسواق الأحياء الجنوبية والغربية أضحت أكثر عدداً وأكثر تخصصاً، ممّا يدل على امتداد الأنشطة الاقتصادية خارج حدود القاهرة الفاطمية في مناطق كانت قليلة النمو في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

كذلك فإن تحديد مواقع الحمامات العامة المستخدمة في زمن المقرئزي (أواسط القرن التاسع الهجري) تعكس التمركز الكبير للسكان داخل القاهرة الفاطمية، كما أن كل الحمامات التي ذكرها في الأحياء الجنوبية كانت تقع على طول الشارع الأعظم بين باب زويلة وجامع ابن طولون. أما الأحياء الغربية فلم يكن بها سوى حمام واحد فقط ولم يكن مستخدماً في زمن المقرئزي(15).

كان نمط المدارس هو النمط الذي ساد في العمارة الدينية في عصر المماليك بالإضافة إلى الخانقاوات والمساجد الجامعة، ودائماً ما كانت تضم المدارس قبة وضريحاً ليُدفن فيه المنشئ. وسنجد أن أغلب هذه المدارس ذات القباب قد أنشئت على القسم الغربي للقبة حتى تكون القبة تجاه القبلة "مدرسة وقبة قلاوون- مدرسة الناصر محمد بن قلاوون- مدرسة الظاهر برقوق- مدرسة الأشرفية".

ولم يجتمع تدريس المذاهب الفقهية السنية الأربعة في مصر في مبنى واحد بعد المدارس الصالحية إلى عند ظهور المدرسة ذات التخطيط المتعامد (Cruciform). وتعد المدرسة الناصرية نسبة محمد بن قلاوون التي افتتحت سنة 703هـ/1303م- أول مدرسة في مصر ذات تخطيط متعامد درس بها الفقه على المذاهب السنية الأربعة، أي أنها جمعت بين التخطيط المتعامد شكلاً والمذاهب الأربعة وظيفة. بينما تعد المدرسة الظاهرية ببيرس التي افتتحت سنة 662هـ/1263م أول مدرسة في مصر ذات تخطيط متعامد إلا أنها لم تدرس الفقه فقط، حيث درست إلى جانب المذهبين الشافعي والحنفي، الحديث وإقراء القرآن(16).

أما الخوانق أو الخوانك -وهي كلمة فارسية معناها بيت جعل لتخلو الصوفية فيه للعبادة- فهي بناء مستقل ملحق به مطبخ وحمام وأماكن للإعاشة، تكون إما حول صحن متوسط أو في مبنى منفصل، مثل ما هو موجود في خانقاه فرج بن برقوق. ويبدو مما ذكره المؤرخون تداخل مصطلحي المدرسة والخانقاه بحيث يطلقون أحيانا على المدرسة اسم الخانقاه والعكس.

وأول خانقاه أقيم في القاهرة هو خانقاه سعيد السعداء الذي أنشأه صلاح الدين سنة 569هـ/1173م في الركن الشمالي للقصر الفاطمي الكبير في موضع دار سعيد السعداء، ويمكن تحديد موضعه اليوم في شارع الجمالية أمام المدرسة القراسنقرية. وفي الفترة الممتدة حتى الفتح العثماني لم يوجد في القاهرة من المباني التي أطلق عليها لفظ خانقاه سوى منشآت قليلة هي: الخانقاه البندقدارية 683هـ/1284م، و خانقاه بيبرس الجاشنكير 709هـ/1309م، و خانقاه شيخو العمري 756هـ/1356م، و خانقاه ابن غراب 797هـ/1395م، و خانقاه سنجر الجاولي على جبل يشكر 723هـ/1323م، وثلاث خانقاوات في قرافة المماليك هي: خانقاه فرج بن برقوق 813هـ / 1410م، و خانقاه الأشرف يرسباي 835هـ/1432، و خانقاه الأشرف إينال 860هـ/1456م، وقد ارتبط ازدهار الخوانق بازدهار الطرق الصوفية في مصر، وبدأت في التدهور مع تدهور هذه الطرق في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي(17).

وانقسمت العمارة الداخلية للقاهرة بين قصور الأمراء والدور والرباع (المساكن الجماعية). ولعبت "القاعة" دورا هاما سواء في تخطيط القصور أو تخطيط بعض المنشآت الدينية مثل المدارس والخوانق. ويظهر نظام القاعة حتى في الدور التي اكتشفت في الفسطاط وترجع إلى العصرين الطولوني والفاطمي. وتخطيط قاعة ست الملك الملحقة بالقصر الفاطمي الصغير، والتي كشف عنها داخل مجموعة قلاوون دليل على ذلك. ويشتمل هذا التخطيط على إيوانين متقابلين على جانبي فناء مغطى بقبة يعرف بالدرقاعة يسمح بتوفير الضوء والهواء.

وقد وصلت إلينا بعض القاعات الملحقة بقصور أمراء المماليك يرجع أغلبها إلى عصر المماليك البحرية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي هي البقايا الوحيدة التي وصلت إلينا من هذه العصور، وأشهرها قصر بشتاك. وقد ساعد على بقاء هذه القاعات تحول بعضها في فترات لاحقة إلى مدارس أو مساجد للحي الذي كانت فيه(18).

وتمثلت العمائر ذات الطابع التجاري في القاهرة المملوكية في الخانات والوكالات التي فقد أغلبها اليوم، وقد تأثرت في تخطيطها بتخطيط الرباع. وتقدم لنا حجج الأوقاف الوفيرة أوصافا للعديد من هذه العمائر، ورغم أن العديد من أمراء المماليك البحرية قد مارسوا التجارة فلم يصل إلينا من هذا العصر سوى بوابة لوكالة قوصون أقدم وكالات القاهرة التي يرجع تاريخها إلى ما قبل عام 742هـ/1314م أما عصر المماليك الشركسية فقد وصل إلينا منه عددا من الخانات والوكالات التي شيدها بعض سلاطين المماليك، أهمها وكالتا (خان) قايتباي؛ الأولى: بالقرب من الأزهر ترجع إلى عام 882هـ/1477م، والثانية: داخل باب النصر ترجع إلى عام 885هـ/1481م. أما الخان الذي حفظ لنا

تخطيطه بطريقه جيدة، فهو خان النخلة الذي شيده السلطان الغوري 906-922هـ/
1501-1516م، ويتكون من حوش يدخل إليه من بوابة كبيرة يحيط به دكاكين ومخازن
يعلوها طابقان –ربما كانت ثلاثة في الأصل- لغرف السكنى. وتشغل واجهة الخان نوافذ
تطل على الطريق لكل طوابقه. وشيد الغوري كذلك قيسارية لا تحمل تاريخاً للإنشاء يطلق
عليها اليوم "خان الخليلي" وهو في الحقيقة اسم لخان يرجع إلى القرن الثامن الهجري،
ويظن أن الغوري أصلح الخان ورمّمه، ولكن نص الإنشاء غير الكامل، والذي يحمل اسم
الغوري يشير دون شك إلى إمكانية أن يكون إنشأاً جديداً قام به الغوري.

الهوامش

- 1- راجع لتفاصيل أكثر: فهمي كريم شاهند، جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، رسالة دكتوراه بكلية الآثار، جامعة القاهرة، 1987م.
- 2- المقريري: "نشرة الفرقان"، 3: 69.
- 3- نفسه، 3: 233-235.
- 4- نفسه، 3: 540-541.
- 5- المقريري 2: 543.
- 6- راجع:
- Arnaud. J. L, caire mise en place dune ville moderue 1867,1907,
des mrrerets prince aux socieres privees ,Paris –Actes Sud 1998.
- 7- المقريري: السلوك، 3: 1127.
- 8- المقريري: الخطط، 3: 368-392.
- 9- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، 13: 152.
- 10- المقريري: الخطط، 2: 404، 406، 445.
- 11-
- Garcin, J, C, (La Medi tananelstation) de L'empire mamelouk sous
les sultans bubrdws Ros xiv iii(1973-74) P.114.
- 12- المقريري: الخطط، 3: 420، 424.
- 13- ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، 3: 117-118، 134.
- 14-
- Aymond A, "Cario's Area and Population in the early Fifteenth
Century" Muqar n II (1984), p22.
- 15- لمزيد من التفاصيل راجع: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار (ممالك مصر
والشام والحجاز واليمن) تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة 1985م؛ القلقشندي: صبح
الأعشى، ج 4/3؛ المقريري: المواعظ والاعتبار، 1-2 القاهرة 1953؛ أبا المحاسن:
النجوم الزاهرة، ج 7-16؛ عبد الرحمن زكي: أبو المحاسن وآثار القاهرة في عصر
الناصر محمد في كتاب "المؤرخ ابن تغرى بردي" (القاهرة 1974م)، 165-175؛ نفسه:

امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك (969هـ، 1517م)، الندوة الدولية
لألفية القاهرة 2: 617-643.

16- الباشا، حسن، دراسة جديدة في نشأة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات
التخطيط المتعامد، مجلة كلية الآثار (1989م) ص 43-80.

17- المقريري: الخطط، 4/727-793.

18- Roymond ,A&.wiet, G. Les Marches du caino, 1979.